مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد الحادي والعشرون، العدد الأول، ص427– ص455 يناير 2013
ISSN 1726-6807 http://www.iugaza.edu.ps/ar/periodical/

استعادة القدس بقيادة صلاح الدّين الأيوبي
بين الروايات التاريخية والقصائد الشعرية

د. آمنة سليمان البدوي
أستاذ مساعد ، قسم اللغة العربية / كلية الآداب / الجامعة الأردنية

ملخص: شهدت بلاد الشام أحداثا وتغيرات في عصر الحروب الصليبية ، كان أبرزها الاستيلاء على بيت المقدس ، وقد ترك هذا الاحتلال أثرا عميقا في نفوس المسلمين، فكانوا في استنجاد وتحريض دائمين لاستعادة القدس، وكانوا يذكرون القادة بجلال هذا الأمر وأهميته عند كل فتح من الفتوح الإسلامية التي سبقت هذا الفتح. وقد قيض الله –تعالى- للأمة قوادا كان لهم أدوار استكمالية متتابعة في مقارعة الصليبيين، حتى استردّ المسلمون بيت المقدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة (583هـ/1187م). وكان لهذا الفتح صدى فيما كتبه المؤرخون وصوره الشعراء ، فأكثروا من التهاني به، وأطالوا الوقوف عنده، فوصف الشعراء المعركة، وفصّلوا الحديث في آثارها، وفي مدح صلاح الدين القائد، بالتقى والبأس والورع، والحلم والتواضع، وحمل شعرهم سمات فنية خاصة.

هذه هي الجوانب التي تناولها هذا البحث، بالاعتماد على المصادر التاريخية والأدبية، ومن أهمها: "الكامل في التاريخ"، لابن الأثير، و"الروضتين في أخبار الدولتين"، لأبي شامة المقدسي ، و "الفتح القسي في الفتح القدسي"، للعماد، ودواوين الشعراء كابن القيسراني، و فتيان الشاغوري، وغيرهما، وبعض الكتب النقدية مثل "عيار الشعر" لابن طباطبا، و "المثل السائر" لضياء الدين بن الأثير، والمراجع المترجمة، والرسائل الجامعية.

Recapturing Al-Quds by Salahu'd-Din the Ayyubid between Historical Narratives and Poetry

Abstract: The Levant Region witnessed events and changes during the Crusades Era, most prominent among these was the conquest of Beit Al-Maqdis. This seizure had a profound impact on the morale of Muslims, who continuously sought to implore and incite their leaders to win Beit Al-Maqdis back. They went on reminding their leaders of the momentous importance of this matter at the time of every Islamic conquest that preceded this the conquest of Beit Al-Maqdis. A number of leaders, raised up in the Muslim nation, performed complementary and successive roles in combating the Crusaders, until Muslims managed to recapture Beit Al-Maqdis under the leadership of Salahu'd-Din the Ayyubid in the year 583 AH/1187G. This conquest was reflected in the writings of historians, and developed thereafter by poets, who made frequent and lengthy mention of the re-conquest of Beit Al-Maqdis and congratulated the Muslim nation on occasion of the victory. Post-Crusades poets described the battle in which Salahu'd-Din the Ayyubid regained the Holy Land and spoke in detail about its effects, lauding Salahu'd-Din, the commander, and extolling his piety, valor, reverence, magnanimity and humility. In addition, such poetry exhibits distinguishing artistic features.

The paper discussed the foregoing aspects relying on historical and literary sources, the most important of which include: *al-Kamil fit-Tarikh* by Ibn al-Athir, *al-Rawdatayn fi Akhbar al-Dawlatayn* by Ibn Shamah al-Maqdisi, *al-Fath al-Qassiyu fil-Fath al-Qudsi* by al-‘Imad, the diwans of poets such as that of Ibn al-Qaysurani, *Fityan al-Shaghouri* and others, a number of criticism books including *‘Iyar al-Shi‘r* by Ibn Tabataba and *al-Mathal al-Sa’ir* by Dhiya’ al-Din Ibn al-Athir, translated references, and dissertation.

مقدمة:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز دور الشعر في فتح بيت المقدس ، وإلى الرّبط بين التاريخ والشعر ، وتبيّن إلى أي حدّ كان الشعر يواكب الحدث ، ومقدار وعي الشعراء بالأحداث والمعارك التي تدور رحاها ، كما تسعى إلى الكشف عن هؤلاء الشعراء الذين لم تكن تقلّ كلماتهم تأثيراً عن وقع السّيوف والرماح ، ودورهم في استنهاض الهمم ، وتحريك المشاعر ، وتسعى الدّراسة إلى الكشف عن دور القيادة في توحيد الأمّة ، ودور الشعر في تصوير صفات القائد المؤهل لتحقيق النصر ، من حيث صفاته العسكرية والحربية والخلقية ، وهي العدة الأساسية في تحقيق النصر ، وبيان ماللثقة من دور في إعطاء القائد حوافز ومقداراً من الثقة بالشعب والجند ، والمضي بعزيمة وصدق واطمئنان ، بأنّ خلفه من يسانده ويدعم خطواته ، وسعت الدراسة إلى تبيّن الملامح الفنية ، من حيث بناء القصيدة ، في مقدماتها وموضوعاتها ، والربط بين الشعر والتاريخ ، والأساليب التي استخدمها الشعراء من حيث الألفاظ والمعاني ، والمصطلحات التي لها صلة بالعصر ، والصور التي تشكلت من وحي الحروب .

وقد اعتمدت الدراسة على المصادر والمراجع التاريخية والأدبية ، والدواوين الشعرية ، في استقراء الأحداث التاريخية ، وتتبع صورة المعركة وصورة القيادة ، وأثر الانتصار في النفوس ، وسعت إلى الربط بين الشعر والتاريخ ، بالإضافة إلى بعض المصادر في نقد الشعر.

ولابد من التنويه إلى دور كل من النص التاريخي والنص الشعري في تبين ملامح بطولة القادة ولا يخفى على الدارسين أن النص التاريخي عادة ما يلم بجميع التفاصيل الخاصة بالحدث والقائد: صفاته وبطولاته وغيرها، في حين أن النص الشعري يمثل انعكاس ذلك الحدث وأثر تلك القيادة في نفوس الناس والشعراء.

* الاستيلاء على بيت المقدس

تعد مدينة القدس من أكبر المعاقل والحصون في العصور الوسطى(1)، وقد استولى عليها الصليبيون ، واحتلوها سنة زمن الحاكم الفاطمي "افتخار الدولة" الذي طلب من "ريموند" الأمان كي يخرج ورجاله من القلعة ويغادروا المدينة مقابل تسليم برج داود ، فأمنه "ريموند"، وخرج افتخار الدولة" ورجاله بأمان وحماية إلى عسقلان حيث انضموا إلى ما تبقى في فلسطين من جيوش تابعة للدولة الفاطمية(2). وهكذا سقطت القدس كلها، بيد الغزاة الصليبيين، يوم الجمعة للثالث والعشرين من شعبان عام 492هـ ، الموافق الخامس عشر من تموز عام 1099م ، وذلك بعد أن حاصروها 39 يوماً ، وحطّموا السور الخارجي، وأجبروا المسلمين على التراجع إلى السور الداخلي، وكان في بيت المقدس نحو ستين ألفا من المقاتلين، والكثير من النساء والأطفال(3)، أعمل فيهم الصليبيون القتل والأسر والسبي، فتألموا واستنجدوا وبكوا، فحسبك بأكوام الرؤوس والأرجل والأيدي في شوارع المدينة وطرقاتها(4).

ويصف أحد الشعراء ما فعله الصليبيون من سلب الحقوق، وإراقة الدماء، والسبي، فيقول :

أَحلَّ الكفرُ بالإسلامِ ضَيْماً   يطولُ عليه للدّينِ النَّحيبُ
فحقٌ ضائِعٌ وحمى مُباحٌ   وسَيْفٌ قاطِعٌ ودمٌ صَبيبُ
وكَمْ من مسلمٍ أمسى سليباً   ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سَليبُ(5)

---

1) رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ، نقله إلى العربية السيد الباز العريني ، دار الثقافة، بيروت، ط1، ص493.

[2]) رنسيمان ، تاريخ ، ص 403 .

3) أجيل ، ريموند ، تاريخ الفرنجة وغزاة بيت المقدس، ، نقله من اللاتينية إلى الإنجليزية جون هيل، نقله إلى العربية، د. حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، ط1، 1989، 544.

4) انظر، ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الشيباني (630هـ/ 1232م) ، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ج10، ص283 ، ومؤلف مجهول أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ، ترجمة وتقديم حسن حبشي، دار الفكر العربي، مصر، 1958، ص247.

5) ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف بن الأمير (874هـ/1470م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ، وزارة الثقافة، مصر، ج5، ص152.

ويشير الشاعر إلى ما فعلوه بالمسجد الأقصى، لا سيّما محرابه، " فقد جعلوه مشغولا بالخنازير والأقذار والنجاسات ، وكانوا قد نصبوا على الصخرة مذبحاً ، وعيّنوا بها مواضع للرهبان ومحطّ الإنجيل "(1)، يقول:

وكم من مسجدٍ جعلوه دَيْراً   على مِحْرابِهِ نُصِبَ الصّليبُ
دمُ الخنزيرِ فيه لهم خلوقٌ   وتحريقُ المصاحِفِ منه طيبُ
أمور لو تأملهنَّ طفلٌ   لطفَّل في عوارضه المشيبُ

ويستثير الشاعر مشاعر المسلمين الدينية، ويذكرهم بالعقيدة، من أجل تعبئة النفوس وشحذها:

أتُسبى المسلماتُ بكل ثغرٍ   وعيشُ المسلمينَ إذاً يطيبُ؟
أما لله والإسلام حقٌ   يدافع عنه شبّانٌ وشيبُ
فقل لذوي البصائرِ حيث كانوا   أجيبوا الله وَيْحَكُمُ أجيبوا(2)

وقد تناقل أهل بغداد عن بيت المقدس من الأنباء، ما أبكى العيون، وأوجع القلوب، فاستغاثوا، وبكوا، وأبكوا ؛ ذاكرين ما دهم المسلمين من قتل الرجال، وسبي النساء ومصادرة الأموال(3)، ويستنكر أبو المظفّر الأبيوردي(4) سكب الدموع؛ لأنّه دليل ضعف وهوان:

مَزَجْنا دماءً بالدّموع السّواجم   فلم يبق منّا عرضةٌ للمَراجِمِ
وشرّ سلاحِ المرءِ دمع يفيضُهُ   إذا الحرب شبَّتْ نارُها بالصَّوارِمِ

ثم يستنهض الهمم عن طريق وصف ماحل بالمسلمين، واستنكار ناعم العيش وهم على تلك الحال، ومافي ذلك من المفارقات المستهجنة:

فإيّها بني الإسلام إنّ وراءكُمْ   وقائعَ يُلْحِقْنَ الذُّرا بالمناسِمِ

---

1) ابن واصل ، محمد بن سالم (697هـ/1297م) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج2، ص217.

2) النجوم الزاهرة، ج10، ص152.

3) الكامل، ج10، ص284.

4) الأبيوردي : (460- 507هـ/1068 - 1113م)أبو المظفر، محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد، شاعر ومؤرخ ونسّابة، ينتهي نسبه إلى صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، أمّا لقبه الأبيوَرْدي فيعود إلى أبيوَرْد مدينة بخراسان، وبها ولد، كما عرف بالكُوفني نسبة على كُوفن القريبة من أبيورد، وكانت موطن أهله وأقاربه. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (681هـ/1282م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ج4، ص 444-449.

أتهويمةٌ في ظل أمنٍ وغبطـــــة   وعيشٍ كنوّارِ الخميلةِ ناعِـــــــمِ
وكيف تنامُ العينُ مِلءَ جُفونِهـــا   على هَفَواتٍ أيقَظَتْ كُلَّ نائِـــــــمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحَتْ ومن دُمىً   تواري حياءً حُسْنَها بالمَعاصِـــــمِ

فهذا كله يستدعي الجهاد؛ لأنّ النفوس الأبيّة والفروسيّة الحقّة، تأبى الظلم والذلّ:

أَرى أُمَّتي لا يُشْرِعونَ إلى العِدا   رِماحَهُمُ والدّينُ واهي الدّعائِـــمِ
ويجتنبونَ النّارَ خوفاً من الـــرَّدى   ولا يَحْسبونَ العارَ ضَرْبَـــةَ لازِمِ
أَتَرْضى صَناديدُ الأعاريبُ بالأذَى   ويُغْضي على ذُلٍّ كماةُ الأعاجِـــمِ

حتّى إنّ الشاعر يدفعهم للغنائم إن لم تجدِ الاستثارة الدينيّة والغيرة على المحارم:

فليتهم إذ لم يذودوا حَمِيَّـــــــــــةً   عن الدّين ضَنُّوا غيرة بالمَحــــــــارِمِ
وإن زهدوا في الأجر إذْ حَمِسَ الوغـــى   فَهَلاّ أَتَوْهُ رَغْبَةً في الغَنائِـــــــــمِ(1)

وعندما بدأت الفتوح ، وبدأ القواد أعمالهم الحربية، وتوالت انتصاراتهم ، أخذ الشعراء يحرضون على تحرير القدس، فها هو ابن منير(2) يمدح عماد الدين بفتحه الرّها (3) ؛ يقول :

والرُّها لو لم تكن إلا الرُّهــا   لكفت حشما لشكِّ المُمْتَريــن(4)

وقد كانت الرّها تفصل بلاد الرافدين عن حلب ودمشق ، وكانت لوردية الكرك تفصل دمشق عن مصر، وقد مكنت الفرنج ممتلكاتهم في الرّها والمعرة والكرك من السيطرة على طرق المواصلات والإفادة من تنقل الحجيج والتجار والبدو المسافرين مابين سورية وبلاد الرافدين ومصر والجزيرة العربية (5). أما القدس فجعلوها عاصمة مملكتهم اللاتينية ، واهتموا بها غاية الاهتمام؛ لأنها أصبحت مدينة عالمية يؤمّها الحجاج من مختلف الجنسيات الأوروبية كل

---

1) الأبيوردي، أبو المظفر محمد بن أحمد بن إسحق (507هـ/1113م) ، الديوان، تحقيق د. عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة، ط2، 1987، ج2، ص156-157.

2) ابن منير الطرابلسي، أبو الحسن أحمد بن منير بن أحمد الطرابلسي، الملقب مهذب الدين، نشأ بطرابلس، وانتقل لدمشق، (ت548هـ/1153م) ، انظر: وفيات الأعيان، ج1، ص456.

3) الرّها، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام . ياقوت ، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي (626هـ/1225م) ، معجم البلدان، ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979، ج3، ص106.

4) ابن منير الطرابلسي، أبو الحسن أحمد بم منير (548هـ/1153م) ، الديوان، جمعه وقدم له، د. عبد السلام تدمري، دار الجيل، بيروت، مكتبة السائح، طرابلس، ط1، 1986، ص199.

5) سميل .ر . سي ، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الني عشر (1097-1193م) ، ترجمة محمد وليد الجلاد ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط1، 1985 ، ص 49-51.

سنة ، فاهتمّوا بتحصينها ببناء الأسوار والأبراج(1). ويربط ابن منير بين فتح الرّها وفتح بيت المقدس ،متوعّداً الصليبين بإخراجهم من القدس، وبإقامة العدل الذي سينسي ما أوقعوه من ظلم وبطش ، يقول :

قُلْ لِقَومٍ غرَّهُم إمهالُـــــــــهُ   ستذوقونَ شَذَاهُ بعدَ حيــــــــنْ
إنّه الموْتُ الذي يُدْرِكُ مَـــــنْ   فرَّ منه مشحا للغافليـــــــــنْ
وهو يُحيي مُمْسكي عُرْوَتَـــــهُ   إنَّها حبلٌ لِمَنْ تابَ مَتيــــــــنْ
مَنْ يُطِعْ ينْجُ وَمَنْ يَعْصِ يَكُــــنْ   من غداةٍ عبرةً للآخريــــــنْ(2)

ويربط ابن القيسراني(3) بين القدس والرها ؛ متطلعا إلى أن المحتلين راحلون؛ يقول:

فإنْ يَكُ فتحُ الرُّها لُجَّـــــــةً   فساحِلُها القدسُ والسّاحِــــــــلُ
فَهَلْ عَلِمَتْ عِلْمَ تلكَ الديــــــارِ   أَنَّ المُقيمَ بها راحِـــــــــلُ(4)

ولعل الربط بين الرها والقدس يعود إلى أنهما كانتا من الإمارات المهمة بالنسبة للصليبيين، بعد احتلال المدينتين، فلا عجب أن يذكر تحرير الرّها بتحرير القدس(5) .

ويحض ابن القيسراني نور الدين على تحرير الأقصى في قصيدته التي مدحه بها حينما هزم الفرنج في إنّب(6) سنة 544هـ/1149م:

فانهَضْ إلى المسجدِ الأقصى بذي لجب   يوليكَ أقصى المُنى فالقُدْسُ مُرْتَقِـــبُ
وائْذَنْ لِمَوْجِكَ في تطهيرِ ساحِلِـــــهِ   فإنَّما أنْتَ بَحْرٌ لُجُّهُ لَجِـــــــبُ(7)

---

[1] (Shaefer , Karl , Jerusalem in th Ayyubid and Mumluk Eras , New York University , ph .D . 1985 . p 122,127 .

2) ديوان ابن منير ، ص201.

3) ابن القيسراني: أبو عبد الله محمد بن نصر القيسراني، ولد في عكا سنة 478هـ، ونشأ بقيسارية، مدح نور الدين زنكي، توفي سنة 548هـ/1153م) ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدن، الهند، ط1، ج8، ق1، ص213-214. الخريدة قسم الشام، ج1، ص96.

4) عادل جابر صالح ، شعر ابن القيسراني، جمع وتحقيق ودراسة، الوكالة العربية للتوزيع، الزرقاء، الأردن، ط1، 1991، ص335.

5) ناجي عبد الجبار، القدسيات في شعر الحروب الصليبية، (ر.ج)، الجامعة الأردنية، 1978، ص123.

[6] إنِّب : بكسرتين وتشديد النون والباء الموحدة حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب . معجم البلدان ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ج1 ، ص 285 .

7) شعر ابن القيسراني، ص74.

ويتطلع الشاعر بشوق إلى تحرير القدس ، ويراها وقد عادت لها مكانتها وأدت السيوف والرماح دورها، وطهرتها بالدماء :

كأني بهذا العزمِ لافُلَّ حدُّهُ   وأقصاهُ بالأقصى وقد قُضِيَ الأمرُ
وقد أصبَحَ البيت المقدَّس طاهراً   وليس سوى جاري الدماء له طُهْرُ
وقد أدَّت البيض الحدادُ فروضَها   فلا عهدةً في عنق سيفٍ ولا نَذْرُ
وَصلت بمعراج النبي صوارمٌ   مساجدها شفع وساجدها وَتْرُ⁽¹⁾

وعندما تم فتح منبج (2) سنة(536هـ/1141م) ، قال العماد(3) مبشرا نور الدين بفتح القدس:

أَبْشِرِ فبيتُ القدس يتلو مَنْبِجاً   ولَمنبجٌ لِسِواهُ كالأُنْموذَجِ

ويلفت المسلمين إلى قدرتهم الكبيرة ، التي لا يعجزها الطارئون، وكانوا قد حاربوا من تحصنوا في مدنهم وأماكنهم وانتصروا عليهم، يقول :

وما أَعْجَزَتْكَ الشُّهْبُ في أَبْراجِها   طلباً فكيفَ خوارِجٌ في أَبْرُجِ

ثم يحث نور الدين على مواصلة الجهاد، وتحرير القدس :

فانْهَضْ إلى البَيْتِ المُقَدَّسِ غازياً   وعلى طرابُلْسٍ ونابلسٍ عُجِ(4)

وكان لا بد لتلك الظروف التي عانى منها العالم الإسلامي طويلا، أن تستثير الطاقات والهمم، وتحرك المشاعر الكامنة، وتستنهض العزائم .

ولابد من التنويه إلى دور كل من النص التاريخي والنص الشعري في تبين ملامح بعض الأحداث ، وبطولة القادة ولا يخفى على الدارسين أن النص التاريخي عادة ما يلم بجميع التفاصيل الخاصة بالحدث والقائد :صفاته وبطولاته وغيرها، في حين أن النص الشعري يمثل انعكاس ذلك الحدث وأثر تلك القيادة في نفوس الناس والشعراء.

---

1) شعر ابن القيسراني، ص 196-197.

[2])مَنبِج : مدينة بأرض الشام كبيرة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة وذات مدارس وربط. عليها سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً. معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت ، ج5 ، ص 205-207 .

3) العماد الأصفهاني، هو عماد الدين الكاتب محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، فاضل في الفقه والأدب، ولد سنة (519هـ/1195م) ، وتوفي بدمشق سنة(597هـ/1200م) ، انظر: وفيات الأعيان، ج5، ص147-153، البداية والنهاية، ج13، ص33-34.

4) الأصفهاني، القاضي عماد الدين (597هـ/ 1200م) ، الديوان جمعه وحققه د. ناظم رشيد ، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1983، ص102-103.

- **استعادة القدس**

لقد تمكن صلاح الدين بعد توحيده الشام ومصر وبعد قضائه على الأعداء المناوئين في الداخل، وتوحيد القوى لمحاربة الصليبيين أن ينزل بالفرنجة ضربات قاصمة، كان مفتتحها معركة حطين (583هـ–1187م) التي أدت إلى فتح عدة حصون ومنها عسقلان، فبعدما فتحها السلطان توجه إلى بيت المقدس وكان غاية في التحصين وكان عدد الفرنج ستين ألف مقاتل(1)وصاحب القدس يومئذ "باليان بن بارزان"، وسلم السلطان كل طائفة من الجيش ناحية من السور وأبراجه، وتحرك السلطان ناحية الشمال؛ لأنها أوسع للجلاد والنزال، ثم بادر إلى الزاوية الشرقية الشمالية فنقبها وحشاها وأحرقها، وخرّ البرج برمته فإذا هو ساقط. وكان المسلمون يستميتون في القتال حينما ينظرون إلى الصخرة وقد نصب عليها الصليب(2)، ولما رأى الفرنج شدة القتال من المسلمين وقد أشرفوا على الهلاك ، اجتمعوا وتشاوروا واتفقوا على طلب الأمان ، فبعثوا أعيانهم وكبراءهم إلى صلاح الدين لكنه رفض في البداية، وصمم أن يفعل بأهله ما فعلوه بالمسلمين من القتل والسبي حينما دخلوه، ثم استجاب بعد ذلك للأمان حرصاً على مصلحة المسلمين حينما هدده "باليان بن بارزان" بتخريب الصخرة والمسجد الأقصى وقتل من فيه من أسارى المسلمين، وقتل نسائهم وأبنائهم، وحرق أموالهم وأمتعتهم(3)، فاجتمع صلاح الدين من أصحابه على إجابتهم بالأمان مقابل أن يبذل الرجل عن نفسه عشرة دنانير، والمرأة خمسة دنانير، والطفل دينارين، وفرّج الله عمّن كان من المسلمين، وتسلم القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلته كانت ليلة المعراج(4)، وقد كان لهذا الانتصار صداه ، وصوّره الشعراء ، وأطالوا الوقوف عنده ، وتبادلوا التهاني ، ونرصد هذه المشاهد التي نقلتها كتب التاريخ ، ورسمها الشعراء بصورهم ، مُلمِحين بهذا الخطاب الديني إلى العقيدة التي هي أساس النصر ، وإلى الثنائيات الدينية التي كانت تبدلت بالنصر ، فقد استبدل التطهير بالرجس ، وصوت الأذان بقرع النواقيس ، واستبدل الإيمان بالكفر ، بهذا النصر العظيم .

---

[1]) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي (ت 774هـ/1372م) ، البداية والنهاية، ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج12، ص344.

2) المصدر السابق ، ج 12 ، ص 344.

3) الكامل، ج11، ص 548-549.

4) ابن شداد، بهاء الدين (632هـ/1234م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ، تحقيق جمال الدين الشيال، المؤسسة المصرية العامة، ط1، 1964، ص82.

- **التهاني الفتح**

"تسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه كل طريق ، وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق(1)، وجلس السلطان صلاح الدين للهناء ولقاء الأكابر والمتصوفة والعلماء، ووقف الشعراء ينشدون الأشعار "(2) مهنئين السلطان بهذا الفتح وزوال الرجس والشرك ، يقول العماد:

أَبْشِرْ بفتحٍ أميرَ المؤمنين أتى   وَصيتُهُ في جَميعِ الأرضِ جَوّابُ
ما كان يخطُرُ في بالٍ تَصَوُّرُهُ   واستَصْعَبَ الفتحُ لما أُغْلِقَ البابُ
وجاء عصرُكَ والأيامُ مقبلةٌ   فكانَ فيهِ لفيضِ الكُفْرِ إنْضابُ
بِفَتْحِهِ القدسَ للإسلام قد رُتِجَتْ   في قَمْعِ طاغيةٍ الإشراكِ أَبْوابُ

ويربط بين فتح مكة وفتح القدس، مبينا انتصار الحق في النهاية:

ففي موافقةِ البيتِ المُقَدَّسِ للبيتِ   الحرامِ لنا تيهٌ وإِعْجابُ
والصَّخْرُ والحَجَرُ الملثومُ جانِبُهُ   كلاهُما لاعتمارِ الخَلْقِ مِحْرابُ
نَفى من القدس صلباناً كما نُفِيَتْ   مِنْ بَيْتِ مكَّةَ أزلامٌ وانصْابُ(3)

أما الجواني(4) فيتساءل غير مصدق لفرط فرحه إن كان هذا الفتح حقيقة أم حلما، يقول :

أترى مناماً ما بعيني أُبْصِرُ   القدسُ يُفْتَحُ والفِرنْجَةُ تُكْسَرُ

ويرد هذا النصر إلى الله- تعالى- :

قد جاءَ نصرُ الله والفَتْحُ الذي   وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فَتْحُ الشَّآمِ مُطَهِّرُ القُدس الذي   هو في القيامةِ للأنامِ المَحْشَرُ
مَنْ كانَ هذا فَتْحُهُ لِمُحَمَّدٍ   ماذا يُقالُ له وماذا يُذْكَرُ(5)

---

1) الأصفهاني، العماد الكاتب (ت597هـ/1200م) ،الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح محمد محمود صبح، الدار القومية، القاهرة، 1956، ص134

2) المصدر السابق، ص130.

3) ديوان العماد، ص 75-76.

4) الجواني، شرف الدين أبو علي محمد بن أسعد بن علي، ولد سنة (505هـ/1111م) وتوفي سنة (588هـ/1192م) كان نقيب مصر في الأيام الفاطمية وله تصانيف كثيرة، كان شيعيا، الخريدة، قسم شعراء مصر، ج1، ص117.

5) المقدسي، أبو شامة / شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (665هـ/1266م) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997، ج3، ص371.

لقد كان هذا الفتح لداء أعيا دواؤه، فكان الشفاء بسيف صلاح الدين كما يقول ابن الساعاتي(1):

وما كانَ إلا الداءَ أعيا دواؤُهُ   وغير حسام العضب لا يُحْسِنُ الحَسْما(2)

يقول :

هُوَ مُنْقِذُ البيتِ المُقَدَّسِ بعدما   طالَتْ فما وَجَدَ الشّفاءَ شكاتُهُ(3)

لقد كان هذا الفتح بشائر أطلت على الأفق ، فأشاعت الاطمئنان والسعادة للأثر الإيماني الذي تركه، من كسر الصليب وإعادة الطهر للقدس كما يقول ابن جبير الأندلسي ت (614هـ/1217م):

اَطَلَّتْ على أُفْقِكَ الزّاهِرِ   سعودٌ من الفَلَكِ الدّائِرِ
فأبْشِرْ فإنَّ رقابَ العِدى   تُمَدُّ إلى سيفِكَ الباتِرِ
كَسَرْتَ صليبَهُمُ عنوةً   فلله درُّك مِنْ كاسِرِ
فَتَحْتَ المُقَدَّسَ من أَرْضِهِ   فَعادت إلى وَصْفِها الطّاهِرِ
وجِئْتَ إلى قُدْسِهِ المُرْتَضى   فخلَّصْتَهُ مِنْ يَدِ الكافِرِ
وأعْلَيْتَ فيه مَنارَ الهُدى   وأحْيَيْتَ من رَسْمِهِ الدّاثِرِ(4)

فقد جعل الفتح "العيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصر تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع"(5) وقد عبر الرشيد النابلسي(6) عن هذا الابتهاج وهذه النشوة التي تطلع إليها المسلمون منذ زمن، فكان الفتح الفريد، يقول :

---

1) ابن الساعاتي، أبو الحسن علي بن رستم بن هردوز المعروف بابن الساعاتي والملقب بهاء الدين، شاعر مبرز برع في صباه خطا وشعرا أقام بدمشق، وتوفي سنة(604هـ/1207م)، انظر وفيات الأعيان، ج3، ص395-396.

2) ابن الساعاتي، أبو الحسن علي بن رستم (604هـ/1207م)، ديوان ابن الساعاتي ،تحقيق أنيس المقدسي المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1939، ج2، ص385.

3) المصدر السابق، ج2، ص410.

4) فوزي الخطبا ، شعر ابن جبير (جمع وتحقيق) ، دار الينابيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1991 ، ص 46- 47.

5) الفتح القسي، ص 130.

6) الرشيد النابلسي، عبد الرحمن بن بدر بن الحسين بن بكار، رشيد الدين النابلسي، مدح الناصر وأولاده، توفي بدمشق سنة(619هـ/1222م) ودفن بباب الصغير، انظر: المنذري، زكي الدين (ت 656هـ/1258م) ، التكملة لوفيات النقلة، ، تحقيق بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1981، ص70، الكتبي ، محمد

هذا الذي كانت الآمالُ تنتظِرُ   فليوف للهِ أقوامٌ بما نَذَروا
بمثلِ ذا الفتح لا واللهِ ما حُكِيَتْ   في سالِفِ الدَّهر أخبارٌ ولا سِيَرُ(1)

فقد ارتفع شأن الإسلام بهذا الفتح، ورفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار(2) فابتهجت القدس، يقول:

يا بهجة القدس إذ أضحى به علمُ الإسلام من بعد طيٍّ وهو منتشرُ(3).

"وقد كان المسجد الأقصى لا سيما محرابه مشغولا بالخنازير والخبث، فأمر السلطان بإزالة ما أحدثوه وتنظيفه من الأقذار والنجاسات ، ونصب المنبر لإقامة الخطبة". وكان الفرنج قد بنوا على الصخرة المقدسة كنيسة، وغيروا أوضاعها وعينوا بها مواضع للرهبان ومحط الإنجيل، فأمر السلطان بمحو تلك الآثار(4) وحل الأذان محل الناقوس ، يقول الرشيد النابلسي :

شتّانَ ما بينَ ناقوسٍ يُدانُ بِهِ   وبَيْنَ ذي منطقٍ يصغي له الحَجَرُ
الله أكبَرُ صَوْتٌ تَقْشَعِرُّ لَهُ   شمُّ الذُّرى وتكادُ الأرضُ تَنْفَطِرُ(5)

وتظهر المفارقة الدينية بين صوت الأذان وقرع النّاقوس ، وينقل الرّشيد شعوره الدّاخلي ، والبعد الإيماني النفسي لصوت الأذان.

ويفخر العماد بزوال الرجس ، وتطهير البيت المقدس من الشرك، ويقول مادحاً صلاح الدين:

وطهَّرتَهُ من رِجْسِهِمْ بدمائِهِمْ   فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
نَزَعْتَ لِباسَ الكُفْرِ عن قُدْسِ أَرْضِها   وأَلْبَسْتَها الدِّينَ الذي كَشَفَ اللَّبسا
وعادَتْ ببيتِ اللهِ أحكامُ دينِهِ   فلا بَطْرَكا(6) أبقَيْتَ فيها ولا قَسّا(1)

بن شاكر ت (764هـ/1362م) ، فوات الوفيات، ، تحقيق د. إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، ج2، ص275-277.

1) الروضتين، ج3، ص409.

2) مفرج الكروب، ج2، ص215.

3) الروضتين، ج3، ص409.

4) مفرج الكروب، ص 230.

5) الروضتين، ج3، ص409.

[6] البَطْرَك : معروف مقدم النصارى ، كما أن البطريق مقدم جيش الروم ، انظر ، ، ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت 711هـ/ 1311م) ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، مج10 ، مادة بطرك ، ص 401 . وانظر ، جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الساقي ، بيروت ، ط4 ، 2001م ، ج12 ، 215 .

وقد شاعَ في الآفاقِ عنكَ بِشارَةٌ   بأَنَّ أذان القُدسِ قد أَبْطَلَ النَّقْسا(2)

لقد سقطت الصلبان، فأبطلت النواقيس، وحل التوحيد محل التثليت، وقد أنزل المسلمون عند الفتح عن رأس قبة الصخرة صليبا مذهبا، وحينما سقط صاح الناس كلهم صوتا واحدا، المسلمون كبروا فرحا، والفرنج صاحوا تفجعا وألما(3) وفي ذلك يقول ابن المجاور الوزير العزيزي في قصيدة أنفذها لصلاح الدين ، تبدو فيها الثنائيات الدينية واضحة :

قَدْ أَنْصَفَ التوحيدَ من تثليثِهِم   وأقامَ في الإنجيلَ حَدَّ المُصْحَفِ
أحيَيْتَ دينَ مُحَمَّدٍ وأَقَمْتَهُ   وسَتَرْتَهُ من بَعْدِ طولِ تَكَشُّفِ(4)

ويعبر ابن سناء الملك(5) عن انتصار الدين وإحيائه بفضل صلاح الدين، يقول :

إنَّ دينَ الإسلامِ منَّ على الخَلْقِ   وأنْتَ الذي على الدّينِ مَنّا
أَنْتَ أحَيْيتَهُ وقد كانَ مَيْتاً   ثم أعْتَقْتَهُ وقد كانَ قِنّا(6)

ويعد الشاغوري(7) هذا الفتح هدية قدمها الملك الناصر للإسلام، فوأد فيه الشرك وطهر بيت المقدس من الرجس، يقول :

أهدى صلاح الدين للإسلام إذ   أردى قبيل الكفر مالم يكفر
واستنقذ البيت المقدس عنوَةً   من كُلِّ ذي نجس بكلِّ مُطَهَّرِ
فلقد وأدتَ الشِّرك يوم لقيتَهُم   وغَدَوْتَ للإسلامِ عَيْنَ المُنْشِرِ

---

[1] القسّ والقسيس : العالم العابد من رؤوس النصارى ، وقيل إن الآية : ﴿ ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ﴾ (المائدة ، الآية 85) ، نزلت فيمن أسلم من النصارى ، وقسس : تتبّع الشيء . انظر ، لسان العرب ، مج6 ، مادة قَسَسَ ، ص 173 . وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج12 ، ص216 .

2) انظر ، ديوان العماد ، ص230-234 .

3) الكامل، ج11، ص551.

4) الروضتين، ج3، ص366-367.

5) ابن سناء الملك: هو القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك، أكبر شعراء معصر وأشعرهم في العصر الأيوبي، ولد في سنة (550هـ/1155م) وتوفي في القاهرة سنة (608هـ/1211م)، انظر: الخريدة، قسم شعراء مصر، ج1، ص64-100.

6) ابن سناء الملك، القاضي سعيد أبو القاسم بن جعفر(608هـ/1211م) ، الديوان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند، ط1، 1958، ج2، 814.

7) الشاغوري، هو الشهاب فتيان بن علي ثمال الأسدي الحريمي المعروف بالشاغوري نسبة إلى الشاغور (615هـ/1218م)، انظر: وفيات الأعيان، ج4، ص 24-26.

لقد فاق هذا الفتح كل الفتوح التي سبقته، حتى لتسير وقد طأطأت رأسها له :

فليهنه الفتح الذي سُدَّت بِـــه   عن ملكِهِ أبوابُ غدرِ الأَدْهُـــرِ
فتح تطأطأ كل فتح دونَـــــهُ   والشَّمْسُ تَكْسِفُ كُلَّ جِسْمٍ نَيِّرِ(1)

وكما فرح المسلمون بهذا النصر، فقد تناقلت المدن أخباره وطربت لـه فأطربت ضريح رسول الله- صلى الله عليه وسلم– كما يقول ابن الساعاتي :

وقد ساغَ فتحُ القدس كلِّ مَنْطِــقٍ   وشاعَ إلى أن أَسْمَعَ الأَسَلَ الصُمّــا
حَبَا مكة الحسنى وثنّى بيثـــربٍ   وأطرَبَ ذياكَ الضَّريحَ وماضَمّـا(2)

وقد ربط الشعراء بين فتح القدس والفتوحات الإسلامية التي كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام، كما كان من العماد في ربطه بين فتح القدس وفتح مكة(3)، ويربط الجلياني بين هذا الفتح وفتوح القادسية في انتصارهما للحق، يقول :

أما رأيتُهم فتوحَ القادسيَّة فــي   أكنافِ لوبية تجلى وذا عُمَــرُ
والحق يُعْرِسُ والطغيان منتحــب   والكفرُ يُطْمَسُ والإيمانُ مُزْدَهِـرُ(4)

لقد كانت التهاني بالفتح تؤكد الإحساس بالواجب الديني، والفخر بما حققه من رفع راية الإسلام وتطبيق شعائره، كما أكدت الترابط بين مدن العالم الإسلامي، فكان صداه يتناقل ويشيع الاطمئنان والغبطة، وهو ما أثبتته كتب التاريخ ، وأبرزت آثاره قصائد الشعراء ، واصفة شعور المسلمين به وصداه في نفوسهم.

- **وصف القتال بين الفريقين**

جمع الفريقان وحشدوا جيوشهم ، وكان الفرنج يرون الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس ، ويأخذوه منهم ، فحصنوه غاية التحصين، وأجمعوا على حفظه والذبّ

---

1) الشاغوري، فتيان ،علي بن ثمال الأسدي(615هـ/1218م) ، الديوان تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1976، ص141-143.

2) ديوان ابن الساعاتي، ج2، ص385.

3) الروضتين، ج3، ص206.

4) انظر، ديوان العماد ، ص75-76.

عنه بجهدهم وطاقتهم ، مظهرين العزم على النضال ، والمسلمون يقاتلون أشد قتال ، ويرمون بالمجانيق (1)حتى أجبروا الإفرنج على طلب الأمان(2).

وها هو "فتيان الشاغوري" يعرض وصفا مفصلا للمعركة، فقد اهتاج جيش الفرنج واضطرب أمام قوة المسلمين وصمودهم، يقول (3):

جاشت(4) جيوشُ الشِّركِ يومَ لَقيتَهُم   يتدامَرون(5) على مُتونِ الضُمَّرِ
وكأَنَّهُم بحرٌ تدافَعَ موجُهُ   بظبى وزَعْفٍ(6) مُحَكَمٍ وسنَّوَّرِ(7)

لقد ظهرت في هذه المعركة كل عناصر الصورة من حركة وصوت ولون ؛ فالخيل تتعثّر بالرماح ، ويسمع صوت تضارب السيوف والرماح ، فتنال من دماء الأعداء وتتخضّب بالحمرة، يقول:

أورَدْتَ أطرافَ الرِّماح صدورَهُم   فوَلَغْنَ في عَلَقِ النَّجيعِ الأحمَرِ
فهناك لم يُرَ غيرُ نَجْمٍ مُقْبِلٍ   في إثرِ عفريتٍ رَجيمٍ مُدْبِرِ
ولّوا وعقبانُ المَنونِ مسفَّةٌ   والخَيْلُ تَعْثُرُ بالقَنا المُتَكسِّرِ
لا يَنْظُرون َسوى حسامٍ مُشْهَرٍ   ومن الدّماءِ كأَنَّهُ لَمْ يُشْهَرِ
رُفِعَتْ سماءٌ من سنابِكِ خَيْلِهِمْ   مسودَّةٌ أرجاؤُها من عِثْيَرِ

ولقد انجلت المعركة عن تشتت جمع الفرنج ما بين قتل وسبي وأسر، بفضل قوة جيش صلاح الدين وشدة عزيمته :

فالقوم نَهبٌ للسباعِ تنوشُهُمْ   من كلِّ ذي نابٍ وصاحِبِ منسرِ
فمن الذي من جَيْشِهِمْ لم يُخْتَرَمْ   قبلاً ومَنْ مِنْ جَمْعِهِمْ لَمْ يُؤْسَرِ
حتى لقد بيعَتْ عقائِلُ أُرْهِقَتْ   بالسَّبْي بالثَّمَنِ الأَخَسِّ الأَحْقَرِ

---

[1])المَنجَنيق والمِنجنيق بفتح الميم وكسرها : القذّاف التي ترمى بها الحجارة ، لفظ دخيل أعجمي معرب عن الفارسية ، محمد لسان العرب ، مج 10 ، مادة مَجْنَقَ ، ص338 . وانظر ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج10 ، ص 338 .

2) الكامل، ج11، ص547-548.

[3]) ديوان الشاغوري، ص143-145.

4) جاش: اهتاج واضطرب . ، مج 6 ، مادة جاش ، 277 .

5) دمر عليهم: هجم هجوم الشر . لسان العرب ، مج 4 ، مادة دمر ، ص291 .

6) الزَّغْف: اللين من الدروع الواسع المحكم .لسان العرب، مج 4 ، مادة زغف ، ص391 .

7) السَّنَوَّر: جملة السلاح ولباس الدروع . لسان العرب، مج 4 ، مادة سنر، ص 381.

وأوانسٍ مثل الشُّموسِ سوافراً   من كاعِبٍ مثْلِ الغزالِ ومِعْصَرِ
صرعى كأنَّهُمُ تماثيلٌ من الكافورِ   من دَمِهِمْ رُدِعْنَ بِعَنْبَرِ
شَكَتْ الفَيافي ثقلَ وطء جيوشِهِ   فبناهُمُ رصفاً كبسطِ المَرْمَرِ
فالخَيلُ لا تمشي إلا على   هامٍ مُنَضَّدَةٍ وشَعْرٍ أَشْقَرِ

فقد لاقى الفرنج الشدة والهلاك من صلاح الدين "فضيق عليهم المسالك ووسع عليهم المهالك، ......، فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس، إلا ويلقون البؤس، واليوم العبوس ، ويلقون على الردى النفوس"(1)

وخربت بيوت الداويّة(2) (3)وكانوا قد بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها(4)، يقول الشاغوري :

كم أودعت دويَّةً داوية   صُرِعوا بها في المعرَكِ المستَوْعِرِ
جُعِلَتْ لها الثاراتُ في آنافِنا   أرَجَ العرارِ وطيبَ عرفِ العَبْهَرِ
بالسَّيفِ رَدَّ السيفَ بحراً من دَمٍ   ينبوعُهُ من هامةٍ أو مِنْحَرِ(5)

أما جيش المسلمين فقد كان قويا صبورا يملأ الأفق، ويصف العماد هذا الجيش، بقوله :"سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملأ الملأ فأفاض الآلآء، وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق ، كأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق ، فالأرض شاكية من إجحاف الجحافل"(6).

ويصف الشاغوري قدرة هذا الجيش على خوض المعركة في الصيف والشتاء، ومافيها من الخيل الضوامر، والرايات المخضبة بالدماء، يقول(7):

وإيرادُكَ الراياتِ صفراً صواديا   وإصدارُها ريا تَمُجُ دِماً حُمْرا
فخيلك تَغْشى الرَّوعَ شُعْثاً ضوامِراً   شوازِبَ عوَّدْتَها الفَتْحَ والنَّصْرا

---

1) الفتح القسي، ص 125.

[2]) الداوية: جمعية تأسست عام (513هـ/ 1119م) ، لحماية طريق الحجاج بين يافا والقدس، ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية، وهي تعني جمعية فرسان المعبد، ، أحمد بن علي المقريزي ، أحمد بن علي (845 هـ/1442م) ، السلوك إلى معرفة دول الملوك ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1956، ج1، ق1، ص 68 بالهامش.

3) البداية والنهاية، ج12، ص345.

4) الفتح القسي، ص125.

5) ديوان الشاغوري، ص145.

6) الفتح القسي، ص116.

[7]) ديوان الشاغوري، ص151-152

فجيشُكَ ما يثنيه قَيْظٌ عن العِدى   ولا خافَ من صنٍّ ولا هابَ صِنَّبْرا(1)
صبورٌكأنَّ الصَّبْرَ أريٌ(2) يشورُهُ(3)   إذا ما رأتْ أعداؤك الصبرَ الصَّبْرا

ويصف ابن سناء الملك استعداد الصليبيين، وجمعهم الجموع، لكن ذلك لم يفدهم أمام بطولة المجاهدين الذين صنعوا من جيشهم وليمة :

قَصَدَتْ نَحْوَكَ الأعادي فردَّ   الله ما أمَّلوهُ عَنْكَ وعَنَّا
جَمَعوا كيدَهُم وجاءوك أركاناً   فمن قَدَّ فارساً هَدَّ رُكْنا(4)
لَمْ تُلاقِ الجيوشَ مِنْهُم   ولكنَّك لاقَيْتَهُم بلاداً وَمُدنا
كلّ من يجعلُ الحديدَ له   ثوباً وطيلساناً وردنا
خانَهُم ذلكَ السلاحُ فلا الرُّمْحُ   تَثَنّى ولا المُهَنَّدُ طَنّا
صَنَعْت مِنْهُمْ وليمةَ وَحْشٍ   رَقَصَ المشرفيُّ فيها وغَنَّى(5)

ويشير الشاعر إلى أسر ملك الفرنج، ويرسم صورة لترنحه وخوفه واضطرابه مستهزئا به، يقول:

والمليكُ العَظيمُ منهُمْ أسيرٌ   يَتَثَنّى في أَدْهَمٍ يَتَثَنّى
يحسبُ النَّومَ يَقْظَةً ويظنُّ   الشَّخْصَ طَوْداً ويبصِرُ الشَّمْسَ دَجْنا
كم تمنّى اللِّقاءَ حتى رآه   فتمنّى لو أنَّه ما تَمَنّى(6)

ثم يشير إلى واقعة قتل البرنس "أرناط" ، وكان السلطان قد نذر قتله إن ظفر به، لأنه غدر بمن نزل عنده من المسلمين في حالة صلح وقتلهم(7) ، يقول :

واللَّعينُ الإِبرنسُ أصبحَ مذبوحاً   بيمينٍ لم يعدِمِ اليَوْمَ يُمْنا(8)

---

1) الصِّنَّبَّر: الريح الباردة . لسان العرب ، مج 4 ، مادة صنبَرَ ، ص 469 .

2)الأري: العسل . لسان العرب ، مج 14 ، مادة أري ، ص 28

3) شار يشور، جنى العسل واستخرجه . لسان العرب ، مج 4 ، مادة شَوَرَ ، ص 434 .

4) ورد في الشطر الثاني من هذا البيت فقد هد ركنا في ديوان ابن سناء والأوجب حذف فقد، لأن الوزن بها لا يستقيم.

5) ديوان ابن سناء الملك، ج2، ص816-818.

6) المصدر السابق، ج2، ص819.

7) انظر واقعة قتل البرنس مفصلة في الروضتين، ج3، ص288-289.

8) وردت في الشطر الثاني من ديوان ابن سناء أصبح مذبوحا تمنى والأصح بيمين حتى يستقيم الوزن.

أنتَ ذكَّيتَهُ فوفَّيْتَ نذراً   كُنْتَ قدَّمْتَه فَجُوزيتَ حُسْنا(1)

ويصف العماد خوف الملك من القتل حينما قتل البرنس أمامه مستهزئا به ، وراسماً له صورة كاريكاتورية ، يقول:

وأنجزَ الله للسلطانِ مَوْعِدَهُ   ونَذْرَهُ في كَفورٍ دينُهُ البَطَرُ
وعاين الملكُ الإبرنسَ في دَمِهِ   فماتَ حيّاً وحيّى وهو يعتذِرُ
بينا سباياه تجلى في دمشقَ إذا   مَلْكُ الفِرَنْجِ مع الأَتْراكِ مُحْتَجَرُ
إزاءَهُ زعماءُ السّاحِلَيْنِ معاً   مُصَفَّدينَ بخيلِ القَهْرِ قد أُسِروا(2)

"أما جيوش الصليبيين، فقد قاتلوا أشد قتال ، وناضلوا أحدّ نضال، وصالوا لقطع الأوصال، والتهبوا، وتأشبوا، ونشبوا ... فكأنّ المناجيق(3) مجانين يرامون ، ومناجيد(4) لا يرامون"(5).

ويصف الجلياني قوة هذا الجيش وسطوته، يقول :

وجَرّوا جيوشاً كالسُّيولِ على الصُّوى   فآضت غثاءً في البِطاحِ مُمَدَّدا
وقالوا ملوكُ الأرضِ طوعُ قِيادِنا   إذا الكلُّ منهم في القيودِ مُعَبَّدَّا(6)

ويشير الجلياني إلى نية الصليبيين في توسيع الرقعة الجغرافية والاقتصادية ، وقد أكد هذه النية رنسيمان في تاريخه(7). فالشاعر على وعي بهذه المخططات إذ يقول :

وقد أَقْطَعَ الكُنْدُ العراقَ مُوَقِّعاً   فَأُوْدِعَ سِجناً وَسْطَ جِلَّقَ مُوْصَدا
وأقسَمَ أن يسقي بدجلةَ خَيْلَهُ   فما وَرَدَ الأردنَّ إلا مُصفَّدا(8)

---

1) ديوان ابن سناء، ج2، ص819.

2) الروضتين، ج3، ص 406-407.

[3]) المناجيق والمنجيق على معنى واحد ، وقد سبق تعريفها ص 16 من البحث ، الهامش (1) .

[4]) المناجيد : الكرماء أنقياء الأعراض من الدّنس والعيوب ، ويُعَبّر عنها بأهل الحفاظ .انظر ، لسان العرب ، مج 7 ، مادة حفظ ، ص440.وانظر ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج8 ، ص 180 .

5) الفتح القسي، ص 124-125.

6) الروضتين، ج3، ص 408.

7) تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص160.

8) الروضتين، ج3، ص 408.

لقد فشلت مخططات الأعداء، ووقعوا في القتل والأسر، ويشير الشاعر إلى ارتعاد القومص جفري صاحب طرابلس وموته كمداً بعد ثلاثة أيام من وصوله غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج، وعلى دين النصرانية(1)، يقول :

وضاقَتْ بِنَفْسِ القومِصِ الأرضُ مَهْرَباً   فأدْرَكَهُ الموتُ المفاجِئُ مُكْمَدا(2)

ويصف الجلياني مالحق بالصليبيين من الهزيمة، وما حل بالداوية(3) والاستبارية(4) ، فقد أمر صلاح الدين بمن أسر منهم أن يجمعوا ويقتلوا(5)، يقول :

مالي أرى ملكَ الإفرنجِ في قَفَصٍ   أين القواضِبُ والعَسّالَةُ السُّمُرُ
والإستبارِ إلى الداويَّةِ التأموا   كأنَّهم سَدُّ يَأْجوجٍ إذا اشْتَجَروا
يتلوهُمُ صَلَبوتٌ سيقَ منتكَساً   وحولَهُ كُلُّ قسيسٍ له زبُرُ(6)

وكان الفرنج قد بنوا على الصخرة كنيسة وملؤوها بالصور، فأزيل ذلك عند الفتح ، حيث تسلق المسلمون إلى أعلى رأس الصخرة واقتلعوا الصليب، فكبر المسلمون فرحا وصرخ الفرنج توجعا(7).

هذه بعض الجوانب المتعلقة بوصف المعركة، فقد فصل الشاغوري في الحديث عن المعركة، بينما لم يفصل معظم الشعراء ، فقد وصفوا الجيش ، وآلات الحرب وآثارها ، حيث لم يكن الوصف منظما وربما كان ذلك لغلبة مشاعر الاضطراب من الفرح بتحقيق نصر طال انتظاره ، وتاقت إليه النفوس ، لقد كان الشعراء يكتبون بوعيهم ، ويرصدون الحدث ، ويحسنون الحديث عنه ، ويصدقون في وصفه ، لايبالغون في رسم صور واقعية تسجيلية ، يدركون المرامي والأهداف ، يفهمون عدوّهم ، ويدركون دورهم النضالي ، قبل المعركة وفي أثنائها .

---

1) الكامل، ج11، ص537-538.

2) الروضتين، ج3، ص 408.

[3] سبق تعريف الداوية ص 17 من البحث ، الهامش 3 .

4) الإستبارية: هذه التسمية العربية لطائفة الفرسان الهسبتارين وهو تحريف ظاهر لفظ الإنجليزي Hospitallers، أسست هذه الطائفة سنة(492هـ/1099م) بعد استيلاء الفرنج على البيت المقدس، وكان يطلق على طائفة من الفرسان الدينيين وكانوا يسكنون دارا تتخذ مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين، تشبه هذه الطائفة طائفة فرسان المعبد التي عرفت باسم الداوية، النوادر السلطانية، حاشية، ص 77.

5) الكامل، ج11، ص538.

6) الروضتين، ج3، ص 406-407.

7) مفرج الكروب، ج2، ص217، 229.

- **دور القيادة في تحقيق النصر**

فكر القيادة متّصل ، ويعي القواد أدوارهم ، في سعيهم لتوحيد جهود الأمة ، وتحقيق أهدافها، وظهرت المحاولات الأولية في توحيد جهود الأمة على يد عماد الدين زنكي (ت 451هـ/1059م)، ثم آل الأمر إلى نور الدين زنكي الذي كانت تشكل غاراته خطرا على الفرنج، وقد كان هذا الأسلوب بديلا عن الهجوم العام الذي حرص على عدم اللجوء إليه، خوفا من مجيء حملة صليبية جديدة(1). واستمر في هذا الأسلوب حتى يجد الفرصة المناسبة لتحرير بيت المقدس، لكن الأجل وافاه، فانتقلت هذه المهمة إلى صلاح الدين الأيوبي الذي عرف بالقدرة السياسية ، وسرعة العمل والحزم، فاتجهت إليه الأبصار ونالت شخصيته الاهتمام لما أبرزه من قدرة في استغلال الطاقات الجماعية وتوحيدها ، ورسم له الشعراء الصورة المثالية للحاكم المسلم والقائد المجاهد الذي لبّى دعوة المسلمين بعد تسعين عاماً بعلو همة قل مثيلها عند غيره من الملوك ، كما يقول الجُوَيني :

تسعون عاماً بلادُ الله تصرُخُ   والإسلامُ أنصارُهُ صُمٌّ وعميانُ
فالآن لَبّى صلاحُ الدّين دعوتَهُم   بأمرِ مَنْ هو للمعوانِ مِعْوانُ
للنّاصرِ ادّخِرَتْ هذي الفتوحُ وما   سَمَتْ لها هِمَمُ الأَمْلاكِ مُذْ كانوا(2)

ويربط الجلياني بين بطولته والنصر الإلهي، يقول:

أبا المظفَّر أنت المُجْتَبى لهدى   أخرى الزَّمانِ على خُبْرٍ بخُبْرَتِهِ
أضْحى لِنَشْرِ الهُدى في فَتْحِ مَنْهَجِهِ   وباتَ يطوي العِدا في سَدِّ ثُغْرَتِهِ(3)

ويثأر الملك الناصر لدين الله، ويجاهد مصابراً في سبيله كما يقول ابن جبير :

ثَأَرْتَ لدينِ الهدى في العِدا   فآثَرَكَ الله من ثائرِ
وقُمْتَ بِنَصْرِ إله الوَرَى   فسمّاكَ بالمَلِكِ النّاصِرِ
وجاهَدْتَ مجتهداً صابِراً   فللهِ أجْرُكَ من صابِرِ

وهو المؤمن الورع التقي، الذي يطيب له العيش في ساحة المعركة، ومافي ذلك من صور المفارقة بينه وبين الملوك :

تَبيتُ المُلوكُ على فرشهم   وترفُلُ في الزَّردِ السّابري

---

1) حسين مؤنس، نور الدين زنكي سيرة مجاهد صادق، ، الدار السعودية، ط2، 1984، ص208.

2) الروضتين، ج3، ص 370.

3)المصدر السابق ، ج3، ص365.

وتؤثِرُ جاهِدَ عيشِ الجِهادِ   على طيبِ عَيْشِهِمُ النّاضِرِ
وتَسْهَرُ لَيْلَكَ في حَقِّ مَنْ   سيُرْضيكَ في جَفْنِكَ السّاهِرِ(1)

وهو المؤيد بالملائكة لورعه، فالملائكة جنده؛ لأن الجهاد عنده تقرباً لله ، يقول ابن سناء الملك :

شَهِدَ النّاسُ أَنَّهُم شاهَدوا جبريلَ   ردَّ الأَقْرانَ قرناً فقَرْنا
فَلَكَمْ ضربةٍ ولَمْ تَرَ ضَرْباً   ولكم طعنةٍ ولم تَرَ طَعْنا
مَلْكٌ جُنْدُهُ ملائكةُ الله فُرادى   جاءَتْ إليه ومَثْنى
قد تعنَّيْتَ حينَ أحْبَبْتَ   وجهَ اللهِ بالحَرْبِ والمُحِبُّ مُعَنّى(2)

وقد ربط الشعراء بينه وبين الصحابة والصديقين في الأخلاق ونصرة الدين، يقول الجواني:

يا يوسُفُ الصدّيقُ أَنْتَ لِفَتْحِها   فاروقُها عُمَرُ الإمامُ الأَطْهَرُ
ولأنتَ عُثْمانُ الشَّريعةِ بعدَهُ   ولأَنْتَ في نصرِ النُّبوَّةِ حَيْدَرُ(3)

ويقول الجلياني:

وأنتَ كاسمِكَ صدّيقٌ وصاحِبُهُ   الملك المُظَفَّرُ سامٍ في مَبَرَّتِهِ
وفي السُّلالَةِ عثمانٌ يُؤَيِّدُهُ   علا عليّ على إيثارِ نُصْرَتِهِ(4)

وهو قائد ذو بأس وعزيمة وشدة على الأعداء، رحيم متواضع جواد غيور على حرمات المسلمين كما يقول الشاغوري:

فَبِمَ العُفاةُ يُشَبّهونكَ في الندى   والبأسِ حارَتْ فكرةُ المُتَفَكِّرِ
لا يَعْدَمَنْكَ المسلمون فكم يدٍ   أوليتَهُم معروفُها لم يُنْكَرِ
أمَّنْتَ سربَهُمُ وصُنْتَ حريمَهُمْ   ودَرَأْتَ عَنْهُم قاصماتِ الأَظْهُرِ
ما إن رآك الله إلا آمرا   فيهم بمعروف ومنكر منكرِ
متواضعاً لله جلَّ جلالُهُ   وبكَ اضمَحلّت سَطْوَةُ المُتَكَبِّرِ
كَمْ بالنَّدى عانٍ فَكَكْتَ وبالرَّدى   عاتٍ كَفَفْتَ بخوفِهِ أَمِنَ البَري(5)

---

1) شعر ابن جبير (جمع وتحقيق) ، ص 47 . وقد وردت عنده وتسْهِرُ جفنَكَ ،وهذه الرواية وردت في الروضتين ، ج3 ، ص372 وقد تكون أدقّ .

2) ديوان ابن سناء الملك، ج2، ص 815-816.

3) الروضتين، ج3، ص 371.

4) المصدر السابق، ص 365.

5) ديوان الشاغوري، ص146-147.

ويقول ابن مجاور :

عزمٌ وحِلمٌ أنسيا ما كانَ مِنْ   عَزْمِ ابنِ مِرْداسٍ وحِلْمِ الأَحْنَفِ(1)

ويحضّ الشعراء القائد الناصر على مواصلة الجهاد، وفتح المدن الأخرى يقول العماد :

توكَّل على اللهِ الذي لَكَ أصبَحَتْ   كلاءَتُهُ دِرْعاً وعِصْمَتُهُ تُرسا
ودمِّر على الباقينَ واجتَثَّ أصْلَهُمْ   فإنك قد صيَّرْتَ دينارَهُمْ فِلسا
وإنَّ بلاد الشرقِ مظلمةٌ فَخُذْ   خراسانَ والنَّهرين والتُّركَ والفُرسا
وبَعْدَ الفِرَنْجِ الكُرْجَ فاقصِدِ بلادَهُم   بِعَزْمِكَ وامْلأ من دمائِهِمُ الرَّسّا(2)

لقد عبر هذا الشعر عن الإعجاب بشخصية صلاح الدين وصفاته، ومثّل رأي الجماعة في هذا القائد الفاتح، الذي استطاع استعادة القدس بوسيلتين أساسيتين، هما: القوة، ووحدة القوى الإسلامية، فالأولى هي رمز للثانية، بل هي من أهم مقوماتها، فلا قوة بلا وحدة(3).

- **الملامح الفنية في الشعر**

تنوعت القصائد في هذا العصر بين المقطوعات والقصائد الطويلة ، وكثرت المقطوعات في شتى الأغراض ، لكن الملاحظ أن قصائد القدسيات اتسمت بالطول والتفصيل في أفكارها، فقد أراد الشعراء الوقوف عند الفتح والمعركة كي يستردّوا أنفاسهم، بعد معاناة طويلة.

أما مطالع القدسيات، فقد عبرت عن الفرح بالنصر بصورة واضحة، وابتدأت القصائد بالتهاني، وقد أشار النقاد إلى وجوب أن تكون المطالع مستحبة؛ لأنها أول ما يقرع السمع(4)، وذكر ابن طباطبا أنه ينبغي للشاعر الاحتراز في مفتتح أشعاره، مما يتطير به، أو يستجفى من الكلام ،لاسيّما في المدائح أو التهاني(5).

فها هو ابن سناء الملك يبدأ قصيدته بالتهاني لصلاح الدين، وهو مطلع يشي تماما بموضوع القصيدة إذ يقول:

---

1) الروضتين، ج3، ص 367.

2) ديوان العماد ، ص 231-233 .

3) محمود إبراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ، المكتب الإسلامي، بدمشق، مكتبة الأقصى، عمان، ط1، 1971، ص146.

4) القرطاجني، أبو الحسن حازم (684هـ/1285م)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص286.

5) عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (322هـ/ 934م) ، شرح وتحقيق، عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982، ص131.

لست أدري بأيِّ فَتْحٍ تَهَنّى   يا مُنيلَ الإسلام ما قَدْ تَمنّى(1)

ويبدأ الجواني بالتساؤل الذي يحمل الفرح والغبطة:

أتُرى مناماً ما بعيني أُبْصِرُ   القُدْسُ يُفْتَحُ والفِرَنْجَةُ تُكْسَرُ(2)

أما الشاغوري فيبدأ قصيدته بالحديث عن بناء الممالك بالسيف والعزيمة. وعلو الأخلاق والهمم، وهي مقدمة تحمل معنى من القصيدة وتشي بموضوعها، فيكون الشاعر بذلك قد حقق فائدة الاستهلال وهي: "أن يعرف مبدأ الكلام ما المراد به "(3)

تُبنى الممالكُ بالوشيجِ الأَسْمَرِ   والبيضُ تَلْمَعُ في العجاجِ الأَكْدَرِ
وبكل أبيضَ شيذمٍ يعدو إلى   الهَيْجا بمقتحمِ الممالِكِ مِسْعَرِ
والعدل والإحسان والمعروف مملوء   الحياضِ لِمُوْسِرٍ ولِمُعْسِرِ(4)

ويفصل الشعراء في أفكار قصائدهم، ويكررون معانيها من غير تنظيم، يبدأ الشاعر بمدح القائد، ثم يتحدث عن المعركة، وقد يعود للحديث عن القائد مرة أخرى، وقد يتحدث عن الجيش والمعركة، ثم يعود لمدح القائد في آخر القصيدة(5)، ونلاحظ أن القدسيات خلت بصورة عامة من المقدمات الغزلية، ويشير ابن مجاور إلى ذلك معللا أن الوقت والظروف يضيقان بذلك، بقوله:

الوَقْتُ أَضْيَقُ من سَماعِ قصيدةٍ   موسومة بصفات أغيد أهيف
الجِدُّ في هذا الزمان مُبَيِّنٌ   والهَزْلُ فيه مع الغَوايةِ مُخْتَفِ(6)

وقد احتفل شعراء العصر بالتشبيه من حيث أنه يستثير الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بما معناه، "وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير منه"(7) كما يجد الذهن في التشبيه متعة، ونوعا من اكتشاف المجهول، وقد احتفل شعراء هذا العصر بالصورة الشعرية واهتموا بها

---

1) ديوان ابن سناء الملك، ص 813.

2) الروضتين، ج3، ص 371.

3) ابن الأثير، ضياء الدين (637هـ/ 1239م)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ، تقديم وتعليق د. أحمد بدوي ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، 1963، ج3، ص96.

4) ديوان الشاغوري، ص 140.

5) انظر الروضتين، ج3، ص363-368، ديوان الشاغري ص 140-145 .

6) الروضتين، ج3، ص 366.

7) المثل السائر، ج2، ص 123.

اهتماما بالغا، فها هو فتيان الشاغوري يشبه الناصر بالبحر، والحبر ببحر الدم، وصـــهيل الخيـــل بالشدو، يقول:

البحرُ أنت لك السواحلُ باعثـــــــاً   سحبَ الحَيا جوداً وقاذفَ جَوْهَـــــــرِ
والحبرُ بحرُ دمٍ تَغَطْمَطَ موجُـــــــهُ   إذ ليسَ ثمَّ سوى الثَّرى من دَفْتَـــــــرِ
والخيلُ مطربةٌ كأنَّ صهيلَهـــــــا   شدوُ النَّحيلة في نسيبِ البحتـــــــري
نَشوى تميدُ من السُّرورِ كأنَّمـــــا   صبحت كؤوساً من شرابٍ مُسْكِـــرِ(1)

والفيافي تشكو ثقل وطء الجيوش:

شَكَتْ الفيافي ثقلَ وطءِ جيوشِـــــهِ   فبناهُمُ رَصْفاً كبسطِ المرمـــــــرِ(2)

وعُدَّ الإكثار من الصور من مقاييس الجودة الشعرية ، فنرى الشعراء يلحون علـــى المعنـــى الواحد بصور متعددة ، يقول الشاغوري واصفا هروب الأعداء وقتلهم:

وكأنَّهُمُ بحرٌ تدافَعَ موجُـــــــهُ   بظبى وزَغْفٍ مُحْكَمٍ وسنـــــــوَّرِ
أوردتَ أطرافَ الرِّماحِ صدورَهُم   فوَلَغْنَ في عَلَقِ النجيعِ الأَحْمَـرِ
فهناكَ لَمْ يُرَ غيرُ نجمٍ مُقبـــــلٍ   في إثرِ عفريتٍ رجيمٍ مُدْبِـــــرِ
فالقَوْمُ نهبٌ للسِّباعِ تنوشُهُـــــــمْ   من كلِّ ذي نابٍ وصاحِبِ مِنْسَرِ
آضَتْ أسودُهُمُ ثعالبَ ذلَّـــــــةٍ   فهُمُ فرائسُ كُلِّ ليثٍ قَسْـــــوَرِ
بالسَّيْفِ ردَّ السَّيْفَ بحراً مـــن دَمٍ   ينبوعُهُ مِنْ هامَةٍ أو مِنْحَـــرِ(3)

وبالغ الشعراء في صورهم وألفاظهم ، وقد تكون هذه المبالغات مقبولـــة لاتـــصالها بفـــرط غبطتهم بالنصر بعد معاناة طويلة ، ولشعورهم الدّيني العميق تجاه بيت المقدس ، فكـــان المـــدح والإعجاب بصلاح الدين لتحريره بيت المقدس، يقول الجواني:

ملكٌ غدا الإسلامُ من عَجَبٍ بـــه   يختالُ والدُّنيا به تَتَبَخْتَـــــــــرُ
نثرٌ ونَظْمٌ طَعْنُهُ وضِرابُــــــــهُ   فالرُّمْحُ يَنْظِمُ والمُهَنَّدُ يَنْثُـــرُ(4)

ولعلّ المبالغة تبدو مقبولة بعد هذا الصبر الطّويل، وتحقيق الأمل الذي قد طال انتظاره، يقول الشّاغوري :

---

1) ديوان الشاغوري، ص142-143.

2) المصدر السابق، ص145.

3) السابق، ص144-145.

4) الروضتين، ج3، ص 371.

صَبورٌ كأنَّ الصَّبرَ أريُ يشورُهُ   إذا ما رأت أعداؤُكَ الصبرَ الصبرا(1)

واستخدم الشعراء الفنون البديعة، وهي من مقاييس العصر الأدبية، فالجويني يجانس بين سِنة وسَنَة ويطابق بين سنة ويقظان في بيت واحد :

وهذه سنةٌ أكرِمْ بها سَنةً   فالكفرُ في سِنَةٍ والنَّصرُ يَقْظانُ(2)

ويقول العماد مجانسا ومطابقا:

قرع الظُّبى بالظُّبى في الحربِ يُطْرِبُهُ   لاقَيْنَةٌ صَنَعٌ باللَّحْنِ مِطْرابُ
نصرٌ أعادَ صلاح الدّينِ رَوْنَقُهُ   إيجازه ببليغ القول إسهابُ(3)

وقد أكثر الشعراء من اشتقاق الألفاظ في البيت الواحد، يقول ابن جبير:

ثَأَرْتَ لدينِ الهُدى في العِدى   فآثَرَكَ اللهُ مِنْ ثائرِ
وقمتَ بنصرِ إلهِ الورَى   فسمّاكَ بالمَلِكِ النّاصِرِ
وجاهَدْتَ مُجْتَهِداً صابِراً   فلله أجرُكَ مِن صابِرِ
وتسهَرُ ليلَكَ في حقِّ مَنْ   سيُرضيكَ في جَفْنِكَ السّاهِرِ(4)

فالاشتقاق بين في (ثأر، ثائر، آثر)، (والنصر الناصر) ، و(جاهدت، مجتهدا)، و (تسهر، ساهر)، وهذا التجانس اللفظي يعطي النصّ إيقاعاً موسيقياً ، كما أنّ النّصر ومدح البطل يشكّل حالة احتفالية تقتضي تزيين الألفاظ ، وقد يُفَسّر استخدام الشعراء الجناس ومافيه من اشتقاقات على أنّه محاولة لاستثمار الألفاظ في صورها المتقاربة للدلالة على مايحسّون به من عظم الكارثة ، بالإضافة إلى ذوق العصر(5) .

وهناك مؤثرات ثقافية تتجلى فيها ثقافة الشعراء ، وقد تنوعت مصادرها ، فهم يستقون من التراث التاريخي والأدبي ، وينهلون من القرآن الكريم ، ويفيدون من الثقافة الدينية النصرانية ، ويربطون واقعهم وأحداث عصرهم بوقائع من التاريخ ، ويدخلون بعض مصطلحات العلوم التي شاعت في عصرهم (6).

---

1) ديوان الشاغوري ، ص 152 .

2) الروضتين، ج3، ص 370

3)المصدر السابق ، ج3، ص 364.

4) شعر ابن جبير ، ص47 .

[5]) مأمون فريز جرار ، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1983 ، ص257 .

[6]) المرجع السابق ، ص 231.

فنرى الشاغوري ينقل لنا صفة راية جيش المسلمين ولونها الأصفر الذي مايلبث أن يصبغ بحمر الدماء ، وهذا يعطي دلالة تاريخية ، يقول :

وإيرادُكَ الراياتِ صفراً صواديا   وإصدارها ريّاً تَمُجُّ دِماً حُمْرا[1]

وقد أكثر الشعراء من استخدام الألفاظ والمصطلحات الدينية الإسلامية مثل، القرآن ، والزهد والتصوّف، والمصحف، والشريعة، والتفقه، والألفاظ الدينية النصرانية، مثل: الإنجيل والتوحيد، والتثليث، والقسي، والصليب وغيرها، من ذلك قول ابن مجاور :

قَدْ أَنْصَفَ التَّوحيدَ من تثليثِهِمْ   وأقامَ في الإنجيلِ حَدَّ المُصْحَفِ
ملكٌ له في الحَرْبِ بَحْرُ تَفَقُّهٍ   ولَه غداةَ السِّلم زُهْدُ تَصَوُّفِ
وعليه أُنْزِلَ في الجِهادِ مُفَصَّلٌ   فلذاك يقرَؤُهُ بِسَبْعَةِ أَحْرُفِ[2]

وقد تأثر الشعراء بالقرآن الكريم واقتبسوا منه، ومن ذلك قول الشاغوري:

"ما إن ترى إلامساكِنَهُم" وهم   صَرْعى الصوارِمِ باليَبابِ المُقْفِرِ[3]

مضمناً قوله تعالى :﴿ **فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ** ﴾ (**الأحقاف : الآية 25)**

وقول الجلياني:

"وضاقَتْ بنفسِ القومِصِ الأرضَ مَهْرَباً"   فأدْرَكَهُ المَوْتُ المفاجِئُ مُكْمَدا[4]

متأثراً بقوله تعالى :﴿**وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** ﴾ **(التوبة : الآية: 25)**

واستخدم الشعراء ألفاظاً جديدة اقتضتها طبيعة المرحلة ورد ذكرها، مثل: القومص، والإبرنس، والإستبارية، والداوية، والكند، وغيرها، ولا شك أن ما يحيط بالعصر من أحداث وتحولات، بالإضافة إلى الطبع والثقافة كلها عوامل تحدد السمات الأسلوبية.

لقد كانت المعاني والألفاظ الدينية تعبر عن الحرب الدينية بين الطرفين، ولا غرابة أن يكون العامل الديني هو العامل الأول في استثارة المشاعر، لما لهذا العامل من قدرة على الاستثارة الشعورية واستقطاب الطاقات بغض النظر عن العرق والبقعة الجغرافية، لقد كان هؤلاء الشعراء يرمون إلى التأثير وليس إلى

---

1) ديوان الشاغوري، ص151.

2) الروضتين، ج3، ص 366-367.

3) ديوان الشاغوري، ص 145.

4) الروضتين، ج3، ص 408.

مجرد نقل المعلومات، فقد كانوا أمينين على رسالة الفنّ على اختلاف الأشكال والأنماط والأزمان والأمكنة⁽¹⁾.

ويقول الجواني رابطاً بين هذا الفتح والفتوحات التاريخية وبين صلاح الدين وعمر بن الخطاب:

يا يوسفُ الصدِّيقُ أنْتَ لفَتْحِهـــا   فاروقُها عُمَرُ الإمامُ الأَطْهَـــرُ⁽²⁾

وتظهر ثقافة الشعراء الزراعية واللغوية وغيرها، ومن ذلك قول الشاغوري:

حَصَدوا وكانَ الغَدْرُ بذرُهُمُ فقـــد   دَرَسوا به وذُروا بأوخَمِ بيـــدَرِ⁽³⁾

وقد أكثر الشعراء من استخدام الألفاظ الحربية ، فلا غرابة إذ إن العصر عصر حروب ، وهي تصف فتوحا ومعارك، كما استخدموا أسماء الحيوانات المفترسة ، والطيور الجوارح لتحمل التعبير عن صورهم الحربية.

كما كثرت الألقاب والنعوت في شعر القدسيات وتكرر ذكرها في معظم ما ورد من شعر مثل الناصر، والمظفر، والسلطان، وغيرها.

الخاتمة:

كان لا بد للظروف التي عانى منها المسلمون أن تستثير الهمم والطاقات، وتجعل الشعراء في تحريض دائم لاستعادة القدس ، وقد عبروا بذلك عن آراء الناس وتطلعاتهم، فكان الشعر صدى صادقا للحس الإيماني العميق تجاه القدس، وتجاه صلاح الدين الفاتح، وكان صدى صادقا لما تناقله المؤرخون، ولم يكن المؤرخون والشعراء يصدرون في وصفهم للفتح والفاتح عن تخيلات لبطولات وهمية، فقد كان الإعجاب بشخصية صلاح الدين يصدر عن وعي وحقيقة، فهو الذي أدرك أهم مقومات الفتح وهي القوة والوحدة.

وقد فصل الشعراء في قصائد الفتح وأطالوا مستخدمين الألفاظ والصور الحربية، ومكثرين من الفنون البديعة والألفاظ الدينية، حيث برز الأثر الديني واضحا في هذا الشعر، فلا غرابة إذ إن الحرب عقائدية دينية، كما أنه الوسيلة الأساسية في استثارة الهمم وشحذ الطاقات، وقد تجلت ثقافة العصر ومقاييسه الفنية عبر الألفاظ والصور في قصائد القدسيات.

وكشفت الدّراسة عن وعي الشعراء بالأحداث ومتابعتهم لها ، ووعيهم لبعض الخطط الحربية، فقضية القدس هي شاغلهم ، ولم يكن مدح القائد تكسّباً واسترضاء ، بل كانوا يصدرون

---

1) محمود إبراهيم، حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، ، دار البشير، عمان، ص1، 1988، 75-76.

2) الروضتين، ج3، ص 371.

3) ديوان الشاغوري ، ص145.

في مدحه عن وعي وفهم ؛ فقضيّة بيت المقدس خاصّة عامة ، فهي قضية الأمة قبل كلّ شيء، وهم يصدرون عن بعد إيماني عميق فيسارعون إلى تلبية نداء الجهاد بالقلم ، سعياً لإرضاء الله تعالى .

ويطربون بالنصر وبصفات القائد ، يصفون المعركة بكلّ تفاصيلها بمتعة متأنية ، يستمرئون البشرى والاحتفال بتحقيق النصر ، فالسيوف والرماح والدماء لها لغة ، تسمع فيها وتشاهد ، وتنقل القارئ إلى ساحة المعركة ، يستمع إلى مقارعة السيوف ، ويرى الاصطباغ بالدماء ، ويشتمّ غبار المعركة عن كثب .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الأبيوردي، أبوالمظفر محمد بن أحمد بن إسحق(507هـ/1113م) ، الديوان ، تحقيق د. عمر الأسعد، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1987.
- ابن الأثير، ضياء الدين (637هـ/1239م) ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق د. أحمد بدوي ود. بدوي طبانة، ط2، دار نهضة مصر، القاهرة، 1963.
- ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد الشيباني (630هـ/ 1232م) ، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت.
- أجيل، ريموند. تاريخ الفرنجة وغزاة بيت المقدس، نقله من اللاتينية إلى الإنجليزية جون هيل، نقله إلى العربية، د. حسين عطية، ط1، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، 1989.
- الأصفهاني، العماد الكاتب (ت597هـ/ 1200م).

  الديوان، جمعه وحققه د. ناظم رشيد، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1983.

الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح محمد محمود صبح، الدار القوميةٍ، القاهرة، 1956.

- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف بن الأمير (874هـ/1470م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، مصر.
- حسين مؤنس. (1984) نور الدين زنكي سيرة مجاهد صادق، ط2، الدار السعودية، الرياض.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد(681هـ/1282م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت .

- رنسمان، ستيفن. تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت.
- ابن الساعاتي ، أبو الحسن علي بن رستم (604هـ/1207م) ، الديوان، تحقيق أنيس المقدسي المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1939 .
- ابن سبط التعاويذي(583هـ/1187م) ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند.
- سميل .ر . سي ، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الني عشر (1097-1193م) ، ترجمة محمد وليد الجلاد ،دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط1، 1985 .
- ابن سناء الملك، القاضي سعيد أبو القاسم بن جعفر (608هـ/1211م) ، الديوان. ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند، 1958 .
- الشاغوري، فتيان ،علي بن ثمال الأسدي(615هـ/1218م) ، الديوان، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1976.
- ابن شداد، بهاء الدين(632هـ/1234م) ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط1، المؤسسة المصرية العامة، 1964.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي(322هـ/934م) ، عيار الشعر، شرح وتحقيق، عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982 .
- عادل جابر صالح. شعر ابن القيسراني، جمع وتحقيق ودراسة، الوكالة العربية للتوزيع، ط1، الزرقاء، الأردن، 1991.
- فوزي الخطبا ، شعر ابن جبير (جمع وتحقيق) ، دار الينابيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1991 .
- القرطاجني، أبو الحسن حازم (684هـ/1285م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966 .
- الكتبي، محمد بن شاكر(764هـ/1362م) ، فوات الوفيات، تحقيق د. إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت .
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي (ت 774هـ1372م) ، البداية والنهاية ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- مأمون فريز جرار ، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1983 .

- مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتقديم حسن حبشي، دار الفكر العربي، مصر، 1958.
- محمود إبراهيم ، حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، دار البشير، عمان، 1988.
- محمود إبراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، المكتب الإسلامي، بدمشق، ط1، مكتبة الأقصى، عمان ، 1971 .
- المقدسي ، أبو شامة ، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (665هـ/1266م) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997 .
- المقريزي، أحمد بن علي(845هـ/1442م) ، السلوك إلى معرفة دول الملوك، ط2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1956 .
- المنذري زكي الدين (656هـ/ 1258/) ، التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1981م.
- ابن منظور ، محمد بن مكرم (711هـ/ 1311/) ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت.
- ابن منير الطرابلسي ، أبو المحاسن أحمد بن منير (548هـ/1153م) ، الديوان، جمعه وقدم له: د. عبد السلام تدمري ، ط1، دار الجيل ، بيروت، مكتبة السائح ، طرابلس،1986.
- ناجي عبد الجبار. "القدسيات في شعر الحروب الصليبية"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن 1978 .
- ابن واصل ، محمد بن سالم (697هـ/1297م) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة.
- ياقوت ، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي (626هـ/ 1225م) ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، 1979 . وطبعة دار الفكر ، بيروت ، د.ت .

المراجع الأجنبية

- Shaefer , Karl , Jerusalem in th Ayyubid and Mumluk Eras , New York University , ph .D . 1985 .